٣٠ ـ المصريون المحدثون

شمـــائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

الأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل التاسع — اللغة والأدب والعلوم

يعتقد العرب بالخرافات اعتقاداً عظيما . ويعد عرب مصر أكثرهم تعلقاً بهذه الاعتقادات الباطلة . وأكثر هذه الخرافات اعتباراً الاعتقاد بالجن . ويقال أن الجن أصلهم سابق على آدم ، وإنهم في خصائصهم العامة طبقة من الكائنات تتوسط بين الملائكة والأنس وتقل عنهما فضلاً . خلقت الجن من نار وتستطيع أن تتشكل بأشكال الأناس والبهائم والوحوش الخيالية وتختفي عن الأنظار كما تريد . والجن يشربون ويأكلون ويتناسلون مثل البشر أو معهم ، كما أنهم عرضة للموت وإن كانوا يعيشون أجيالاً عديدة . ويسكن الجن سلسلة جبال قاف التي يزعمون أنها تحيط بالأرض جميعها كما ذكر في الفصل السابق . ويعتنق بعض الجن الإسلام ، والآخرون كفرة . ويسمى هؤلاء الكفرة أيضاً شياطين ويرأسهم إبليس ، إذ أنه تبعاً للرأي السائد ، جني مثل غيره من الشياطين لأنه خلق من نار بينما خُلق الملائكة من نور معصومين من الخطأ

ويخشى العرب الجن أخيارهم وأشرارهم كثيراً . ويحفظون لأخيارهم احتراماً عظيما . وقد جرت العادة عند هذا الشعب عند ما يصب أحدهم ماء أو غيره على الأرض أن يصيح أو يدمدم « دستور » مستأذناً أو مستغفراً الجني الذي قد يوجد هناك . ويظن أن الجن ينتشرون في طبقة الأرض الصلبة مثلما ينتشرون في السماء حيث يقتربون من حدود السماء الأولى فيسترقون السمع عن المستقبل ويستطيعون هكذا أن يساعدوا العرافين والسحرة . ويعتقدون أيضاً أن الجن يسكنون الأنهار والخرائب والآبار والحمامات[1] والأفران والمراحيض . ولذلك عند ما يدخل أحد مرحاضاً أو يدلي دلواً في بئر أو يوقد ناراً الخ . . . يقول « دستور » أو « دستور يا مباركين » . ويتلو الداخل بيت الراحة هذه العبارة مبتهلا إلى الله أن يحميه من الأرواح الشريرة . إلا أن البعض لا يذكرون اسم الله باعتبار أنه لا يليق النطق به في مثل هذا المكان فيكتفون بقولهم : « أعوذ بك من الشياطين ذكوراً وإناثاً » ، وتفسر هذه العادات إحدى قصص ألف ليلة وليلة التي يحكي فيها أن تاجراً قتل جنياً بنواة تمرة كان يأكلها . ويظهر الجني في القصة نفسها وفي غيرها قادماً في زوبعة من الرمل أو الغبار . والاعتقاد العام عند عرب مصر أن الزوبعة التي تثير الغبار أو الرمال ، وتكسح الحقول والصحارى ، يسببها تحليق هذه الكائنات[2] ويفوه المصريون عادة عندما تبدو الزوبعة قريبة منهم بتعويذة لإبعادها فيهتف بعضهم : « حديد يا مشئوم » إذ يظنون أن الجن يخافون هذا المعدن كثيراً . ويصيح آخرون : « الله أكبر » . ويعتقدون أن الشهب سهم يقذف به الله الشياطين ، ويصيح المصريون عند ما يرون شهاباً ساقطاً : « سهم الله في عدو الدين » ويسمى العامة الشياطين عفاريت ، وقد وردت في القرآن ذلك بهذا النص : « قال عفريت من الجن » وقد ترجم سيل Sale هذا اللفظ : « قال جن هائل » ، ويعتقدون أن العفاريت يختلفون عن الجن الآخرين بعظيم قدرتهم ودوام شرهم ، ويسمى الشيطان الأقوى ماردا

---

(١) العادة في مصر أن يرسم المسلمون والمسيحيون صليباً على مدخل الحمام إذ يعتقدون أن هذا يمنع الجن من دخوله

(٢) وقد قست ارتفاع زوبعة في مدينة طيبة في ظروف ملائمة ، فقد لاحظت ارتفاعها من مكان عال وقت مرورها بمجموعة من النخيل هزتها هزاً عنيفاً ، على بعد مني وقد بلغ ارتفاع الزوبعة سبعمائة وخمسين قدما وأظن أني رأيت زوابع أكثر ارتفاعا ، وقد قست زوابع أخرى في المكان نفسه تبلغ ارتفاعها بين خمسمائة قدم وسبعمائة

يرتبط تاريخ الجن بعدة أساطير لم يذكرها القرآن ، ولذلك لا يؤمن بها المسلمون العقلاء . ويتفق الجميع على أن الجن خلقوا قبل الإنسان . إلا أن البعض يقولون لطبقة أخرى من الكائنات السابقة على آدم ذات طبيعة مشابهة . ويعتقد العامة أن الأرض كان يسكنها قبل آدم جنس من المخلوقات يختلف عن البشر شكلاً وقوة ، وأن أربعين ملكاً من هؤلاء ، أو اثنين وسبعين تبعاً لقول آخر ، سمى كل منهم سليمان ، حكموا هذا الشعب تباعاً . وكان أحد هؤلاء السليمانين يسمى جان بن جان . ويتوهم البعض أن الجن ، ويسمون أيضاً جاناً[1] ، اشتقوا تسميتهم من اسم هذا الملك . ومن هنا يعتقد البعض أن الجن يشبهون هذا الجنس السابق ولكن البعض يؤكد أن الجن كانوا طبقة من الكائنات مختلفة أخضعها الجنس الآخر .

ويعتقدون أن الجن كثيراً أو دائماً يتشكلون بأشكال القطط والكلاب والحيوانات المفترسة . وقد روى الشيخ خليل المدابغى — وهو من أشهر علماء مصر ، وقد ألف كتباً عديدة فى مختلف العلوم وتوفى فى سن متقدمة أثناء زيارتى الأولى لمصر — الحكاية التالية : « كان له — كما يقول — قط أسود عزيز ينام عند ذيل كلته . فى منتصف إحدى الليالى سمع طرقاً على باب داره ؛ فقام القط وفتح مصراع الشباك وهتف : « من ؟ » فأجابه صوت : « أنا فلان (وذكر اسماً غريباً) الجنى ، افتح الباب » . فقال قط الشيخ : « إن الزلاج قرئ عليه اسم الله[2] » فقال الآخر : « إذن اقذف لي رغيفين من الخبز » فأجاب القط : « إن سلة الخبز سُمى عليها » فقال الغريب : « حسن . أعطنى على الأقل جرعة ماء . ولكنه رد عليه بأن وعاء الماء محفوظ بالطريقة نفسها . فسأل ماذا يستطيع أن يفعل وهو يوشك أن يموت جوعاً وعطشاً . فأشار عليه القط أن يذهب إلى باب الدار التالية . وذهب هو بنفسه وفتح الباب ثم لم يلبث أن عاد . وفى الصباح التالى غفل الشيخ عن عادة كان يراعيها دائماً فأعطى القط نصف الفطيرة التى كان يفطر بها بدلاً من قطعة صغيرة اعتاد أن يعطيه إياها . ثم قال له : «يا قطى ، أنت تعلم أننى فقير ، فلم لا تأتى إذن ببعض الذهب» فاختفى القط فى الحال بعد هذا الكلام ولم يره الشيخ بعد ذلك » .

والحكايات من هذا النوع تستوجب السخرية ، لكن من المستحيل أن نقف على حقيقة عقلية الشعب الذى أحاول وصفه دون أن أسرد حكاية أو أكثر

ويؤكد العامة أن أشرار الجن كثيراً ما يعتلون الأسطح والشبابيك ويقذفون بالقراميد والحجارة فى الشوارع والأفنية . وقد أخبرت من أيام قليلة بحادثة من هذا النوع أفزعت سكان أهم شارع فى القاهرة أسبوعاً بأكمله ، إذ كانت القراميد تقذف بكثرة من بعض المنازل كل يوم طول هذه المدة ، ولم يصب أحد . وقد ذهبت إلى مكان هذه الدعابة الجنية المزعومة للنظر والاستقصاء ولكن قيل لى عند وصولى إن الرجم انقطع . ولم أجد أحداً أنكر قذف القراميد أو شك فى أنه من أعمال الجن . وكانت الملاحظة العامة عند ذكر هذا الموضوع قولهم : « الله يحفظنا من شر أعمالهم »

وقد أخبرنى صديق بهذه المناسبة أنه قابل بعض انجليز لا يعتقدون بوجود الجن . وقد استدل بذلك على أنهم لم يشاهدوا أبداً تمثيلاً عاماً ، وإن كان منتشراً فى بلدهم التى سمع عنها منذ ذلك الحين باسم « كوميديا » قاصداً بهذه العبارة التمثيل المسرحى ؛ ثم قال بعد أن وجه الكلام إلى أحد مواطنيه ، ودعانى لأصدق على حديثه : « منذ زمن قصير وصف لى جزائرى منظراً من هذا النوع كان قد رآه فى لندن » ؛ فقاطعه مواطنه سائلاً : « أليست انجلترا أم لندن مدينة فى انجلترا ؟ » فأجابه صديقى بتحفظ وهو ينظر إلىّ أن لندن عاصمة انجلترا ، ثم أوجز موضوع المسرح فقال : « لا يمكن وصف الدار التى عرض بها التمثيل : كانت الدار مستديرة صفت على أرضيتها مقاعد عديدة وحولها مقصورات كثيرة الواحدة تعلو الأخرى حيث جلس أفراد الطبقات العليا »

(١) ويعتبر بعض الكتاب الجان أقل طبقات الجن قدرة

(٢) وعادة الفقهاء (التأديين والأتقياء) أن يسملوا عند قفل الباب بالمزلاج أو تغطية الخبز أو خلع للملابس ليلا أو فى مناسبات أخرى . وهذا كما يعتقدون يحفظ أموالهم من الجن . ويقال للشىء الذى ذكر عليه اسم الله « مسمى عليه »

وكان هناك فرجة مربعة كبيرة أسدل عليها ستار ، وعند ما غصت الدار بالمتفرجين الذين دفعوا مبالغ كبيرة للدخول أظلم المكان فجأة وكان الوقت ليلاً ، وكانت الدار قد أضيئت بعدة مصابيح ، إلا أنها أطفئت كلها تقريباً في وقت واحد دون أن يمسها أحد ، ثم رفعت الستارة الكبيرة ، فسمع المشاهدين هدير الموج وصفير الهواء ، ورأوا دون تمييز في الظلام الأمواج ترتفع وتزيد وتضرب الشاطئ ، وسمع في الحال صوت رعد مرعب ، ثم أضاء البرق للمشاهدين البحر الهائج ، وسقط حينئذ سيل من المطر الحقيق ، وبعيد ذلك صفا الجو فظهر البحر بوضوح ، وشوهدت باخرتان على بعد اقتربتا ثم اشتبكتا في قتال أطلقت فيها نيران المدافع ، وعرضت بعد ذلك مجموعة مختلفة من المناظر الفريدة ، وأضاف صديقي : « من الواضح الآن أن مثل هذه العجائب لا بد أن تكون من أعمال الجن ، أو على الأقل عملت بمساعدتهم » ؛ وقد شرحت له هذه الظواهر ، ولكني لم أستطع إقناعه بخطأه

ويقال إن الجن يسجنون أثناء شهر رمضان . ومن هنا نرى بعض المصريات يرششن في وقفة عيد الفطر ملحاً على أرض الغرف مبسملات لمنع هذه المفزعات من دخول منازلهن . ويجب أن أشير هنا إلى بقية عجيبة من خرافة مصرية قديمة إذ يعتقدون أن لكل حي من أحياء القاهرة حارساً خاصاً من الجن ذا شكل أفعى

ويعتقدون أن القبور المصرية القديمة والهياكل المظلمة تسكنها العفاريت . وقد استحال على أن أقنع أحد خدمي بدخول الهرم الأكبر مني لرسوخ هذه الفكرة في ذهنه . وينسب الكثير من العرب بناء الأهرام والآثار المصرية المدهشة جميعها إلى جان بن جان وأتباعه الجن . فهم لا يتصورون أن تقيم هذه الآثار يد بشر

وتطلق عبارة عفريت بالحرى على الشيطان ، إلا أن أرواح الأموات تسمى أيضاً بهذا الإسم . وينسج من هذه حكايات لا يقبلها العقل كما أنها تلقى في النفوس رعباً هائلاً . إلا أن هناك من لا يخشاها إطلاقاً . وكان في خدمتي طاه مضحك يتعاطى الحشيش أحياناً . وقد سمعته ذات ليلة ، بعيد دخوله خدمتي ، يدمدم ويهتف على السلم كما لو كان دهشاً لحادثة ما . ثم قال بأدب « ولكن لم تجلس في تيار الهواء ؟ تفضل بالصعود إلى المطبخ وسلني بحديثك قليلاً » . ولما لم يرد على خطأية المؤدب كرره عدة مرات حتى ناديت عليه وسألته إلى من يتحدث . فأجاب : « إنه عفريت جندي تركي صعد من البئر وجلس على السلم يدخن شبكه ويرفض أن يتحرك . تقدم من فضلك وانظر إليه » . ولما ذهبت إلى السلم وأخبرته أنني لا أرى شيئاً لاحظ أن سبب ذلك صفاء العقل . وقد قيل له فيما بعد إن المنزل ظل مسكوناً طويلاً ؛ وقد قرر أنه لم يُخبر قبلاً بهذا الموضوع المزعوم أن جندياً تركياً قتل هناك . وقد صرح لي أنه كثيراً ما يرى العفريت بعد ذلك

ويعتقد المصريون وبعض الشرقيين بوجود الغيلان أيضاً . ويحسبون أن هذه الكائنات طبقة من الشياطين . ويقال إنهم يظهرون في أشكال الحيوانات والوحوش وأنهم يسكنون المقابر وغيرها من الأماكن المنعزلة ، وأنهم يأكلون الجثث ويقتلون من يوقعه سوء الحظ في طريقهم ويلتهمونه . ومن هنا تطلق عبارة الغول على آكلي لحم البشر

(يتبع)

عبد طاهر نور

مجلس صربية المنوفية

يطرح في المناقصة العامة توريد ٤٢٥ رزمة ورق طبع أبيض لعمل كراسات . وتقدم الطلبات على ورقة دمغة وتحدد ظهر يوم السبت ١٨ أبريل سنة ١٩٤٢ آخر ميعاد لقبول العطاءات

٩٢٢٨